١ الفراهيدي.. مبتكِرُ عِلْم العَروض

لا يمكنُ لشاعرٍ أو باحثٍ أو كاتبٍ أديبٍ أريبٍ من بعدِ عصرِ الفراهيديِّ، أنْ ينشدَ شعراً أو يدرسَ أدباً؛ دونَ أنْ يتعرَّضَ لبحورِ الخليلِ بن أحمدَ المشهورِ بالفراهيديِّ.

منذُ طفولتي الأولى وأنا مُولَعٌ بهذا الرَّجلِ الأديبِ الفيلسوفِ العالمِ، وقد قالوا عَنْهُ أَنَّهُ أَذْكى عُلَمَاء اللُّغَةِ العَرَبِيّةِ في عصرِهِ، ومِفْتاحُ عُلومِها.

وُلدَ في نحو عام (١٠٠هـ ـ ٧١٨م) وتُوُفِّيَ في البصرة نحو عام (١٧٥هـ ـ ٧٨٩م) في خلافةِ هارونَ الرَّشيدِ.

وَكَانَ الخَليلُ بْنُ أحْمدَ الفَراهيدِيُّ زاهِداً بَعيداً عَنْ تَرَفِ الحياةِ ومسَرَّاتها، على الرَّغْمِ مِن مَنْزِلَتِهِ العالِيَةِ عنْدَ أَهْلِ السُّلْطانِ. وهو القائِلُ:

وَكـذا الـتـواضُـعُ لا يَـضُـرُّ بِـعـاقِـلٍ لَـيْـسَ الـتَـطـاوُل رَافِـعـاً مـنْ جَـاهِـلِ

ومرَّةً وقفَ أمامَ الكعبةِ المشرَّفةِ وصارَ يدعو اللهَ ﷻ ويقول: «اللهمَّ هبْ لي عِلْماً لم يسبقْني إِلَيْهِ أحدٌ»، فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ، حيثُ يعدُّهُ العُلَمَاء الواضعَ الحقيقيَّ لعِلْم النَّحوِ في صورتِهِ النِّهائيَّةِ الَّتِيْ نقلَها عَنْهُ تلميذُهُ سيبويه في كِتَابِهِ المُسَمَّى «الكتاب»، كما أَنَّهُ واضعُ عِلْم العَروضِ، وهو ما يُعرفُ بأوزانِ الشِّعرِ العَرَبِيِّ.

كانَ عابداً تَقيّاً ورِعاً، مجتهداً في طلبِ العِلْم، واسعَ المعرفةِ، شديدَ الذَّكاءِ، غيوراً على

اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، اعتزلَ فترةً النَّاسَ، وَكَانَ يأوي إلى كوخٍ صغيرٍ من خشبِ الأشجارِ يقضي فيه السَّاعاتِ الطوالَ، يقرأُ كلَّ ما جمعَهُ من أشعارِ العربِ، يرتِّبها حسبَ أنغامِها، ويضعُ كلَّ مجموعةٍ متشابهةٍ في دفترٍ منفردٍ.

عكفَ على قراءةِ أشعارِ العربِ ودرسِ الإيقاعِ والنُّظُمِ، ثُمَّ قَامَ بترتيبِ هذهِ الأشعارِ حسبَ أنغامِها، وجمعَ كلَّ مجموعةٍ متشابهةٍ ووضعَها معاً، فتمكَّنَ من ضبطِ أوزانِ خمسة عشَرَ بحراً يقومُ عليها النُّظُم حَتَّى الآنَ، فأَصْبَحَ مُؤَسِّسَ عِلْم العروضِ.

وتذكرُ المصادرُ أَنَّهُ كانَ يسيرُ بسوقِ الصفَّارينَ (النحَّاسينَ)، فسمعَ صوتَ المطارقِ على طستٍ من نحاسٍ على نغمٍ معيَّنٍ، فلمعَتْ في ذهنِهِ فكرةُ عِلْم العروضِ (ميزان الشِّعرِ أو موسيقى الشِّعرِ) الَّتِيْ يقومُ عليها الشِّعرُ العَرَبِيُّ. فصارَ يتدَلَّى في بئرٍ ببيتِهِ ويبدأُ بإصدارِ الأصواتِ بنغماتٍ مُخْتَلِفةٍ ليستطيعَ تحديدَ النَّغمِ المناسبِ لكلِّ قصيدةٍ. فاخترعَ هذا العِلْم وحصرَ فيه أوزانَ الشِّعرِ في خمسة عشرَ بحراً، وكما اهتمَّ بالوزنِ اهتمَّ بضبطِ أحوالِ القافيةِ، وهي الحرفُ الأخيرُ في بيتِ الشِّعْرِ، فأخرجَ للنَّاسِ هذينِ العلمينِ الجليلينِ كاملينِ مضبوطينِ مجهَّزينِ بالمصطلحاتِ.

ولم يكتفِ الخليلُ بن أحمدَ بما أنجزَهُ من علمٍ، بل واصلَ جهودَهُ وأعدَّ معجماً يعدُّ أوَّلَ معجمٍ عرفتْهُ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ، حيثُ جمعَ المعجمَ بطريقةٍ قائمةٍ على الترتيبِ الصَّوتيِّ، فبدأَ بالأصواتِ الَّتِيْ تُنطَقُ من الحلقِ، وانتهَى بالأصواتِ الَّتِيْ تُنطَقُ من الشَّفتَينِ، وسمَّاهُ «معجم العَينِ».

وقيلَ في زُهدِهِ قصصٌ كثيرةٌ منها أنَّه:

أُرسلَ إِلَيْهِ سليمانُ بن عليٍّ والي البصرةِ ليأتيَهُ يؤدِّبَ ولدَهُ، فأخرجَ الخليلُ خبزاً يابساً، وقالَ: ما عندي غيرُهُ، وما دمتُ أجدُهُ فلا حاجةَ لي في سليمانَ، ثُمَّ قالَ لمندوبِ سليمانَ:

أَبْلِغْ سُلَيْمَانَ أَنِّيْ فِي سِعَةٍ ... وفي غِنَى غَيرَ أَنِّي لَسْتُ ذا مالِ

والفَقْرُ في النَّفْسِ لا في المالِ تَعْرِفُهُ ... وَمِثْلُ ذاكَ الغِنَى في النَّفْسِ لا المالِ

ولادتُهُ ومهدُهُ الأَوَّلُ:

على رأسِ القرنِ الهجريِّ الأَوَّلِ، في زمنِ الخليفةِ الأمويِّ العادلِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وفي قَرْيةٍ منْ قُرَى عمانَ ولِدَ لرَجُلٍ مِنْ قَبيلةِ الأَزْدِ اسْمُهُ أَحْمَدُ وليدٌ سمَّاهُ الخَليلَ، ثُمَّ هاجرَ أَهْلُهُ إلى مدينَةِ البصْرَةِ، وَفيها شَبَّ وَتَرَعْرعَ في مَجالِسِ أَهْلِ العِلْمِ والمعْرفةِ.

ويقولُ بعضُهُمْ أَنَّهُ لا يُعلمُ على التَّحقيقِ أينَ كانَ مولدُهُ، لكنَّهمْ لا ينفونَ أَنَّهُ من المُحتمَلِ أنْ يكونَ وُلدَ في عمانَ، أو رُبَّمَا في البصرةِ.

وذَهبَ بعضُهمْ إلى أَنَّهُ وُلدَ وماتَ في البصرةِ.

وقالوا: إنَّ سببَ موتِهِ أَنَّهُ كانَ يمشي مشغولَ الفكرِ في ابتكارِ طريقةٍ في الحسابِ تُسَهِّلُهُ على العامَّةِ، فدخلَ المسجدَ وهوَ يعملُ فكرَهُ فصدمتْهُ ساريةٌ وهوَ غافلٌ، وكانتْ صدمةٌ قَوِيَّة أدَّتْ إلى وفاتِهِ.

ويُروَى أَنَّهُ كما كانَ الخليلُ عجيباً في حياتِهِ، متفرِّداً بينَ بني جنسِهِ، كانَتْ وفاتُهُ أيضاً كذلكَ؛ فَقَدْ أرادَ أنْ يُقرِّبَ نوعاً جديداً من الحسابِ تمضي به الجاريةُ إلى البائعِ فلا يمكنُهُ ظلمَها، فدخلَ المسجدَ وهوَ يُعمِلُ فكرَهُ في ذلكَ، ولكنَّ أجلَهُ كانَ بالمرصادِ، حَيْثُ صدمتْهُ ساريةٌ وهو غافلٌ عنها بفكرِهِ، فانقلبَ على ظهرِهِ، فكانَتْ سببَ موتِهِ.

وقيلَ: بلْ كانَ يقطّعُ بحراً منَ العروضِ.

ومنَ المحقَّقِ أَنَّهُ تلقَّى العِلْم على يدِ عُلَمَاء البصرةِ الكبارِ مثل أبي عمرٍو بنِ العلاءِ، وعيسى بنِ عمرَ الثقفيِّ، وأيُّوبَ السختْيانيِّ البصريِّ، وعاصمِ الأَحْولِ بنِ النَّضرِ البصريِّ، والعوَّامِ بن حوشبَ، وغالبِ بنِ خطَّاف القطَّانِ البصريِّ، وعثمانَ بنِ حاضرٍ الأزديِّ، وغيرِهِمْ.

اسمُهُ الكاملُ أبو عبد الرَّحْمَنِ الخليلُ بن أحمدَ بن عمرو بن تميمٍ الفَرَاهِيديُّ الأزديُّ اليحمديُّ، ويُقَالُ: الفُرْهودِيُّ، الأزديُّ.

والفراهيديُّ نسبةٌ إلى فراهيدَ، وهي بطنٌ من قبيلةِ الأزدِ العُمانيَّةِ أو اليمانيَّةِ، أو هيَ محلَّةٌ في البصرةِ، ولعلَّها محلَّةُ الفراهدِ الأزديِّينَ.

والفرهودُ: ولدُ الأسدِ بلغةِ أزد شَنُوءَة.

وقيلَ: إنَّ الفراهيدَ صغارُ الغنمِ.

ويُقَالُ: إنَّ أباهُ هو أوَّلُ مَن سُمِّيَ أحمدَ (بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ)، أبو الخليلِ بن أحمدَ العروضيّ.

عَاشَ فقيراً، وَكَانَ شعثَ الرَّأسِ، شاحبَ اللَّونِ، قشفَ الهيئةِ، مُتمزِّقَ الثِّيابِ، مُتقطِّعَ القَدَمينِ، مَغموراً في النَّاسِ لا يُعرَفُ. كما تَنقلُ صورتَهُ الكُتُب.

علمُهُ وكتابتُهُ:

درسَ الخَليلُ أَصْواتَ اللُّغَةِ وَصفاتِها، وَأَبْدَعَ أَوَّلَ معْجَمٍ لُغَويٍّ شامِلٍ، وهو كِتابُ (العين)، وزيادَةً على مَوْسوعَتِهِ اللُّغويَّةِ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ دَرَسَ موسيقى الشِّعْرِ العَرَبِيِّ وحَصَرَ

أَوْزانَهُ، ولهُ منَ الكُتُب: كتابُ «العين» في اللُّغَةِ، وكتابُ «العروض»، وكتابُ «الشَّواهد»، وكتابُ «النّقط والشّكل»، وكتابُ «النَّغَم»، وكتابُ «العَوامِل».

ويُعدُّ الخليلُ من أَئمَّةِ اللُّغَةِ والأدبِ، وهو واضعُ عِلْم العروضِ، أخذَهُ من الموسيقى، وَكَانَ عارِفاً بها، كما تلقَّى العِلْم على يديْهِ العديدُ مِنَ العُلَمَاءِ الَّذِيْنَ أَصْبَحَ لهمْ شأنٌ عظيمٌ في اللُّغَةِ، منهم: سيبويه، والأصمعيُّ، والكسائيُّ، والنّضرُ بن شميل، وهارونُ بن موسى النحويُّ، ووهب بن جرير، وعليّ بن نصر الجهضميّ.

كانَ زاهداً ورعاً واسعَ العِلْم، ولا يوجدُ عالمٌ لغويٌّ اتَّفقَ المؤرِّخونَ على نُبلِ أَخْلاقِهِ وسماحةِ روحِهِ، كما اتَّفقوا على الخليلِ، فصارَ حقّاً ابنَ الأمَّةِ العَرَبِيَّةِ الَّتِيْ أَثَّرَ فيها فكراً وسلوكاً وخُلقاً.

وَيُعَدُّ شيخُ عُلَمَاء المدرسةِ البصريةِ، وتنسَبُ له كتبُ: معاني الحروف، وجملة آلات الحرب، والعوامل، والعروض، والنقط... إلخ.

قَامَ بتغييرِ رسمِ الحركاتِ؛ إذْ كانَتِ التَّشكيلاتُ على هيئةِ نقاطٍ بلونٍ مُخْتَلِف عنْ لونِ الكتابةِ، وَكَانَ تنقيطُ الإعجامِ (التَّنقيطُ الخاصُّ بالتَّمييزِ بينَ الحروفِ المُخْتَلِفةِ كالجيمِ والحاءِ والخاءِ) قد شاعَ في عصرِهِ، بعدَ أنْ أضافَهُ إلى الكتابةِ العَرَبِيَّةِ تلميذاهُ أبو الأسود نصرٌ بن عاصمٍ، ويحيى بن يعمر التابعيُّ.

وكانَ من الضروريِّ تغييرُ رسمِ الحركاتِ؛ ليتمكَّنَ القارئُ منَ التَّمييزِ بينَ تنقيطِ الحرَكاتِ وتنقيطِ الإعجامِ. فجعلَ الفتحةَ ألِفاً صغيرةً مائلةً فَوْقَ الحرفِ، والكسرةَ ياءً صغيرةً تحتَ الحرفِ، والضمَّةَ واواً صغيرةً فَوْقَهُ. وإذا كانَ الحرفُ منوَّناً كرَّرَ الحَرَكَة،

ووضعَ شِيناً غيرَ منقوطةٍ للتَّعبيرِ عنِ الشَّدَّةِ، ووضعَ رأسَ عينٍ للتَّدليلِ على وجودِ الهمزةِ، وغيرَها من الحركاتِ، كالسُّكونِ وهمزةِ الوصلِ، وبهذا يكونُ النِّظامُ الَّذِيْ اتَّخذَهُ قريباً هو نواةُ النِّظامِ المتَّبعِ اليومَ.

ومن أشهرِ مؤلَّفاتِهِ كتابُ معجمِ «العين»، وهو أَوَّلُ معجمٍ في العَرَبِيَّةِ، وقد فكَّرَ فيه الخليلُ بن أحمدَ، وطلبَ من تلميذِهِ اللَّيثِ بن المظفَّرِ الكنانيِّ أنْ يكتبَ عنهُ، ثُمَّ بعدَ موتِهِ أَتمَّ تلميذُهُ هذا الكتابَ.

ملامِحُ من شخصيَّتِهِ:

كانَ رجلاً صالحاً عاقلاً، وقوراً كاملاً، مفرطَ الذَّكاءِ، وأكثرُ ما كانَ من صفاتِهِ بعدَ سيادتِهِ في العِلْمِ وانقطاعِهِ له ما كانَ من زهدِهِ وورعِهِ؛ إذْ كانَ مُتقلِّلاً من الدُّنيا جدّاً، مُتقشِّفاً مُتعبِّداً، صبوراً على خشونةِ العيشِ وضيقِهِ، وَكَانَ يقولُ: «إِنِّي لأغلقُ عليَّ بابي فما يجاوزُهُ همِّي».

وفَوْقَ زهدِهِ وورعِهِ وتقواهُ وعِلْمِهِ، كانَ رجلاً ظريفاً مُتَوَاضِعاً حسنَ الخُلُق؛ ومما ذُكرَ في ذلكَ أَنَّهُ اشتغلَ عليه رجلٌ في العروضِ، وَكَانَ بعيدَ الفهمِ، فأقَامَ مدَّةً ولم يعلقْ على خاطرِهِ شيءٌ منه، فطلبَ مِنْهُ الخليلُ تقطيعَ هذا البيتِ:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئاً فَدَعْهُ وَجاوِزْهُ إِلَى ما تَسْتَطِيعُ

وقالَ الخليلُ: «فشرعَ معي في تقطيعِهِ على قدرِ معرفتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نهضَ من عندي فلم يعُدْ إليَّ، وكأَنَّهُ فهمَ ما أشرتُ إليهِ».

وهنا يتَجلَّى أدبُ الخليلِ وحسنُ خُلُقِهِ مَعَ تلامذتِهِ، وكيفَ كانَ يستعملُ منهجاً تربويّاً فريداً في تعليمِهِ إيَّاهمْ.

ومن أفضلِ ما عُلم عن أدبِ الخليلِ وتواضعِهِ ما حكاهُ عَنْهُ أيُّوبُ بن المتوكِّلِ، حَيْثُ يَقُوْلُ: «وَكَانَ الخليلُ إذا أفادَ إنساناً شيئاً لم يُرِهِ أَنَّهُ أفادَهُ، وإنِ استفادَ من أحدٍ شيئاً أراهُ بأَنَّهُ استفادَ منهُ». وفي ذلك ما فيهِ من سموٍّ نفسيٍّ وإنكارٍ للذَّاتِ، فضلاً عن احترامِ المعلِّمِ والإقرارِ بفضلهِ على المتعلِّم؛ إذْ ذاكَ من بعضِ حقوقِهِ.

مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ:

يَقُوْلُ الباحثونَ: إنَّ مِنْ أَهَمِّ ما طيَّر اسمَ الخليلِ وأذاعَ شهرتَهُ في الآفاق هو كتابُهُ ومعجمُهُ البِكْرُ من نوعهِ في مصنَّفاتِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ: كتاب (العين)، ولم يكنِ (العين) هو مصنَّفُهُ الوحيدُ، وإِنَّمَا ذَكرتْ كتبُ المراجعِ أنَّ له أيضاً: كتابَ (فائت العين)، وكتابَ (العروض)، وكتابَ (الشواهد)، وكتابَ (النقط والشكل)، وكتابَ (النغم)، وكتاباً في (معنى الحروف)، وكتابَ (العوامل)، وكتابَ (الإيقاع)، وكتابَ (تصريف الفعل)، وكتابَ (التفاحة في النحو)، وكتابَ (جملة آلات الإعراب)، وكتابَ (شرح صرف الخليل)، وكتابَ (الجمل)، وكتابَ (المُعَمَّى)، وغيرها.

قَالُوا عنه:

ـ قَالَ النّضْر بن شُمَيْل تلميذُ الخليلِ: «ما رأى الرَّاؤون مثلَ الخليلِ، ولا رأى الخليلُ مثلَ نفسِهِ، أقَامَ في خصٍّ (كوخٍ) له بالبصرةِ، لا يقدرُ على فلسينِ، وتلامذتُهُ يكسبونَ بعِلْمِهِ الأموالَ».

ـ قَالَ عَنْهُ سفيانُ بن عُيَيْنَةَ: «مَن أحبَّ أنْ ينظرَ إلى رجلٍ خُلِقَ من الذَّهبِ والمسكِ، فلينظرْ إلى الخليلِ بن أحمدَ».

ـ ويُروَى عن تلميذِهِ النّضر بن شميلٍ: «أُكِلَتِ الدنيا بأدَبِ الخليلِ وكُتُبِهِ، وهو في خصٍّ لا يُشْعَرُ به. وَكَانَ يحجُّ سنةً، ويغزو سنةً، وَكَانَ من الزهَّادِ المنقطعينَ إلى اللهِ تعالى».

ـ وَقَالَ السِّيرافيُّ: «كانَ الغايةَ في تصحيحِ القياسِ، واستخراجِ مسائلِ النحوِ وتعليلِهِ».

ـ وَقَالَ عَنْهُ ابنُ حِبَّانَ في كتابِ «الثِّقات»: «كانَ من خيارِ عبادِ اللهِ المتقشِّفينَ في العبادةِ».

ـ وَقَالَ بعضُ تلاميذِهِ: «ما رأيتُ أحداً يُطلبُ إِلَيْهِ ما عندَهُ أشدَّ تواضعاً منه».

ـ وَقَالَ عَنْهُ حمزةُ بن الحسن الأصبهانيُّ: «إِنَّ دولةَ الإسلامِ لم تخرِجْ أبدعَ للعلومِ الَّتِيْ لم تكنْ لها أُصُول عِنْدَ عُلَمَاء العربِ من الخليلِ».